**إلزام الملحد فتأمل كيف الإيمان برب العالمين**

**أن هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوى والأغذية والنباتات التى هى كذلك فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الامم فى وصفه وتجربته على ممر الجهور ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا ايسر شيء وأفله بل لو اتفق جميع الامم لم يحيطوا علما بجميع ما أودع واحد من ذلك النوع من الحكم والمصالح هذا غلى مافى ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود الخالق ومشيئته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هذه الصور الغربية والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الانواع والصور بنفس التركيب أيضا ولا هو مفيض له فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف فى الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وانه فعال يريد اختيارا ومشيئته فتنوع مخلوقاته وحدوثها شيئا بعد من أظهر**

**الدلالات وتأمل كيف ارشد القرآن إلى ذلك فى غير موضع كقوله تعالى ( وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها فى الأكل إن قى ذلك لآيات لقوم يعقلون ) وقوله ( ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ) وقوله ( هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون \* ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لأية لقوم يتفكرون ) وقال تعالى ( والله خلق كل دابة من ماء فننهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على اربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ) فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات فى المشى وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها فنبه على الاشتراك والاختلاف فيشير إلى يسير منه فالطير كلها ذوات الحوافز فى الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها فى ما وراء ذلك واشتراك ذوات الأظفار فى الظلف وتفوتها فى غير ذلك واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها فى الخلق والمنافع والأشكال واشتراك حيوانات الماء فى كونها سابحة تأوى فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره واشتراك الوحوش فى البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها فى صفائها وأشكالها وطبائعها وأفعالها اعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره واشتراك الماشى منها على بطنه فى ذلك وتفاوت نوعه واشتراك الماشى على رجلين قى ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت وكل من هذه الانواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الانسان فمن اعظم اعظم الحكم الله الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولى بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة الى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته وذلك أدل شىء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل فيعلم إحاطة قدرة واحدة وعلم واحد وحكمة واحدة أعنى بالنوع من قادر واحد حكيم واحد بجميع هذه الانواع وأضعافها مما لا تعلمه العقول البشرية كما قال : ( ويخلق مالا تعلمون ) وقال ( فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون ) فيجمع غايات فعله وحكمه خلقه وأمره إلى غاية واحدة هى منتهى الغايات ثم ينزل منها إلى غايات أخر هى وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبة غلى مادونها ( وأن إلى ربك الرجعى ) فليس وراءه معلوم ولا مطلوب و لا مذكور إلا العدم المحض وليس فى الوجود إلا الله ومفعولاته وهى آثار أفعاله وافعاله آثار صفاته وصفاته قائمة به من لوازم ذاته**

**والمقصود أن الغايات المطلوبة العلم بإحاطة علم واحد من من عالم واحد بجميع ما فيه على اختلاف مافيه واجتمعت غايات فعله وأمره إلى غاية واحدة وذلك من أظهر أدلة توحيد الإلهية كما ابتدأت كلها من خالق واحد وقادر واحد ورب واحد ودل على الأمرين أعنى توحيد الربوبية والإلهية النظام الواحد والحكمة الجامعه للأنواع المختلفة مع ضدها وتعذرها ودل افتقار بعضها إلى بعض وتشبك بعضها ببعض ومعاونة بعضها ببعض وارتباطه نه على انها صنع فاعل واحد ورب واحد فلو كان معه آلهة وأرباب غيره كما لا ترضى ملوك الدنيا ان يحتاج مملوك احدهم الى مملوك غيره مثله لما فى ذلك من النقص والعيب المنافى لكمال الاقتدار والغناء ودل انتظامها فى الوجود ووقوعها فى ثباتها واختلافها على اكمل الوجوه وأحسنها على انتهائها إلى غاية واحدة ومطلوب واحد هو إلهها الحق ومعبودها الاعلى الذى لا إله لها غيره ولا معبود سواه فتأمل كيف دل اختلاف الموجودات وثباتها واجتماعها فيما اجتمعت فيه وافتراقها فيما افترقت على إله واحد ورب واحد ودلت على صفات كماله ونعوت جلاله فالموجودات بأسرها كعسكر واحد له ملك واحد وسلطان واحد يحفظ بعضه ببعض وينظم مصالح بعضه ببعض ويسد خلل بعضه ببعض فيمد هذا بهذا ويقوى هذا بهذا وينقص من هذا فيزده فى الآخر ( يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ) ( ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ) ويبيد هذا فينشىء مكانه من جنسه مايقوم مقامه ويسد سده فيشهد حدوث الثانى أن الذى أحدثه وأوجه هو الذى أحدث الأول لا غيره وأن حكمته لم يتغير وعلمه لم ينقص وقدرته لم تضعف وأنه لا يتغير بتغير ما يغير منها ولا يضمحل باضمحلاله ولا يتلاشى بتلاشيه بل هو الحى القيوم العزيز الحكيم هذا إلى ما فى لوازم مكبرها وانتظام بعضها ببعض وما يصدر عنها من الافعال والآثار من حكم وأفعال أخرى وغايات أخر حكمها حكم موادها وحواملها كما نشاهده فى أشخاصها وأعيانها مثال ذلك فى أحدوثة واحدة أنك ترى المعدة تشاق الغذاء وتجتذبه إليها فانظر لوازم ذلك قبل تناوله ولوزامه بعد تناوله وما يترتب على ذلك اللوازم من عمارة الدنيا فإذا جذبته إليها انضجته وطبخته كما تنضج القدر ما فيها فتنتجه الإنضاج الذى تعده لتغذى جميع اجزاء البدن وقواه وأرواحه به وهى إذا أنضجته لأجل نصيبها الذى ينالها منه فهو فهو قليل من كثير بالنسبة إلى انتفاع غيرها به فيدفع مافضل عن غذائها عنها إلى من هو شديد الحاجة إليه على قدر حاجته من غير أن يقصد ذلك أو يشعر به ولكن قد قصده وأحكمه من هو بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير يدبره بحكمته ولطفه وساقه فى المجارى التى لا تنفذ فيها الإبر لدقة مسالكها حتى أوصله إلى المحتاج إليه الذى لا صلاح له إلا بوصوله إليه وكانت طبيعة الكبد ومزاجها فى ذلك تلى طبيعة المعدة وفعلها يلى فعلها وكذلك الأمعاء وباقى الأعضاء كالكبد للقلب فى إعداد الغذاء والقلب للرئة والرئة للقلب فى إعداد الهواء وإصلاحه فالأعضاء الموجودة فى الشخص إذا تأملها وتأملت أفعالها ومنافعها وما تضمنه كل واحد منها من حكمة اختصت به كشكله ووصفه ومزاجه ووضعه من الشخص بذلك الموضع المعين علمت علما يقينا ان ذلك صادر عن خالق واحد ومدبر واحد وحكيم واحد فا نتقل من هذا إلى اشخاص العالم شخصا شخصا من النوع الإنسانى تجد الحكمة الواحدة الظاهرة فى تلك الافراد الكثيرة قد نفعت بعضهم ببعض واعانت بعضهم ببعض حارثا لزارع وزارعا لحاصد وحائكا لخياط وخياطا لنجار ونجارا لبناء فهذا يعين هذا بيده وهذا برجله وهذا يعينه بعينه وهذا باذنه وهذا بلسانه وهذا بماله وإذ لا يقدر أحدهم على جميع مصالحه ولا يقوم بحاجاته ولا توجد فى كل واحد منهم جميع خواص نوعه فهم بأشخاصهم الكثيرة كإنسان واحد يقوم بعضه بمصالح بعض قد كمل خواص الإنسانية فى صفاته وأفعاله وصنائعه وما يراد منه فغن الواحد منهم لا يفى يجمع جميع الفضائل العلمية والعملية والقوة والبقاء فجعل ذللك فى النوع الإنسانى بجملته والله سبحانه قد فرق كمالات النوع فى اشخاصه وجعل لكل شخص منها ماهو مستعد قابل له بحيث لو فبل اكثر من ذلك لأعطاه فإنه جواد لذاته قد فاض جوده وخيره على العالم كله وفضل عنه أضعاف ما فاض عليه فهو يقيضه على تعاقب الآنات أبدا وكذلك يفضل فى الجنة فضل عن أهلها فينشىء لها خلقا يسكنهم فضلها وإنما يتخصص فضله بحسب استعداد العوامل والمعدات وذلك بمشيئة وحكمته فهو الذى أوجدها وهو الذى أعدها وهو الذى أمدها ولما كان جوده وفضله اوسع من حاجة الخلق لم يكن يد من بقاء كثير منه مبذولا فى الوجود مهملا وهذا كضوء الشمس مثلا فإن مصالح الحيوان لا تتم إلا نه وهى تشرق على مواضع فضلت عن حوائج بنى ’دم والحيوان وكذلك المطر والنبات وسائر النعم ومع ذلك فلم يعطل وجودها عن حكم ومصالح وعبر ودلالات وعطاء الرب ونعمه أوسع من حوائج خلقه فلا بد أن يبقى فى المياه والأقوات والنبات وغير ذلك أجزاء مهملة ولا يقال ما الحكمة فى خلقها فإن هذا سؤال جاهل ظالم فإن الحكمة فى خلق الارض وما عليها ظاهرة لكل بصير والمعمور بعضها لا كلها والرب تعالى واسع الجود دائمة فجوده وخيره عام دائم فلا يكون إلا كذلك فإن ذلك من لوازم علمه وقدرته وحكمته ولعلمه وقدرته وحكمته العموم والشمول والكمال المطلق بكل اعتبار فيعلم من استقرار العالم وأحواله انتهاؤه إلى عالم واحد وقادر واحد وحكيم واحد أتقن نظامه أحسن الإتقان وأوجده على أتم الوجود وهو سبحانه ناظم أفعال الفاعلين مع كثرتها ورابط بعضها ببعض ومعين بعضها وجاعل بعضها سببا لبعض وغاية لبعض وهذا من ادل الدليل على أنه خالق واحد ورب واحد وقادر واحد دل على قدرته كثرة افعاله وتنوعها فى الوقت الواحد وتعاقبها على تتالى الانات وتعين تصرفاته فى مخلوقاته على كثرتها ودل على علمه وحكمته كون كل شيء كبير وصغير ودقيق وجليل فى النظام الحكمى ليس منها شيء حتى مسام الشعر فى الجلد ومراشح اللعاب فى الفم ومجارى الشعب الدقيقة من العروق فى اصغر الحيوانات التى تعجز عنها ابصارنا ولا تنالها قدرتنا وهذا فيما دق لصغره وفيما جل لعظمه كالرياح الحاملة للسحب إلى الارض الجرز التى لإنبات بها فيمطرها عليها فيخرج بها نباتا ويحيى بها حيوانا ويجعل فيها جزئين من الطعام والشراب والاقوات والادوية دع ما فوق ذلك من تسخير الشمس والقمر والنجوم واختلاف مطالعها ومغاربها لإقامة دولة الليل والنهار وفصول العام التى بها نظام مصالح من عليها فإذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع عباده فالسماء سقفه والارض بساطه والنجوم زينته والشمس سراجه ومصالح سكانه والليل سكنهم والنهار معاشهم والمطر سقياهم والنبات غذاؤهم ودواؤهم وفاكهتهم والحيوان خدمهم ومنه قوتهم ولباسهم والجواهر كنوزهم وذخائرهم كل شيء منها لما يصلح له فضروب النبات لجميع حاجاتهم وصنوف الحيوانات معدة لجميع مصالحهم وذلك أدل دليل على وحدانية خالقه وقدرته فلم يكن لون السماء أزرق اتفاقا بل لحكمه باهرة فإن هذا اللون أشد الالوان موافقة للبصر حتى إن فى وصف الاطباء لمن أصابه ما أضر ببصره أو كل بصره إدمان النظر إلى الخضرة وقرب منها إلى السواد فجعل أحكم الحاكمين أديم السماء بهذا اللون ليمسك الابصار الراجعة فلا ينكأ فيها فهذا الذى أدركه الناس بعد الفكر والتجربة قد وجد مفروغا منه فى الخلقة ولم يكن طلوع الشمس وغروبها على هذا النظام لغير علة ولا حكمة مطلوبة فكم من حكمة ومصلحة فى ذلك من إقامة الليل والسكن فيه والنهار والمعاش فيه فلو جعل الله عليهم الليل سرمدا لتعطلت مصالحهم واكثر معايشهم والحكمة فى طلوعها اظهر من ان تنكر ولكن تامل الحكمة فى غروبها اذ لولا ذلك لم يكن للناس هدوء ولا قرار ولا راحة وكان الكد الدائم بتكافؤ ابدانهم وتسرع فسادها وكان ماعلى الارض يحرق بدوام شروق الشمس من حيوان ونبات فصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على مافيه صلاح العالم وقوامه ونظامه وكذلك الحكمة فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الازمنة الاربعة ومافى ذلك من الحكمة فإن فى الشتاء تغور الحرارة فى الشجر والنبات فيتولد من ذلك مواد الثمار وتكيف الهواء فتنشأ من السحاب ويحدث المطر الذى به حياة الارض والحيوان وتشتد افعال الحيوان وتقوى الافعال الطبيعية وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد الكامنة فى الشتاء وفى الصيف يسخن الهواء فتنضج الثمار ويتحول فضول الابدان ويجف وجه الارض فيتهيأ للبناء وغيره وفى الخريف يصفو الهواء ويعتدل فيذهب بسورة حر الصيف وسمومه إلى أضعاف أضعاف ذلك من الحكم وكذلك الحكمة فى تنقل الشمس فإنها لو كانت واقفة فى موضع واحد لفائت مصالح العالم ولما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لان الجبال والجدران يحجبانها عنها فاقتضت الحكمة الباهرة ان جعلت تطالع اول النهار من المشرق وتشرق على مايقابلها من وجه الغرب ثم لا تزال تغشى وجها بعد وجه حتى تنتهى الى الغرب فتشرق على ماستتر عنها اول النهار فتأخذ جميع الجهات منها قسطا من النفع وكذلك الحكمة الباهرة فى انتهاء مقدار الليل والنهار الى هذا الحد فلو زاد مقدار احدهما زيادة عظيمة لتعطلت المصالح والمنافع وفسد النظام وكذلك الحكمة فى ابتداء القمر دقيقا ثم أخذه فى الزيادة حتى يكمل ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود الى حالته الاولى فكم فى ذلك من حكمة ومصلحة ومنفعة للخلق إنهم بذلك يعرفون الشهور والسنين والآجال وأشهر الحج والتاريخ ومقادير الاعمار ومدد الإجارات وغيرها وهذا وإن كان يحصل بالشمس إلا ان معرفته بالقمر وزيادته ونقصانه امر يشترك فيه الناس كلهم وكذلك الحكمة فى انارة القمر والكواكب فى ظلمة الليل فإنه مع الحاجة إلى الليل وظلمته لهدوء الحيوان وبرد الهواء عليه وعلى النبات لم يجعل الليل ظلاما محضا لا ضياء فيه فلا يمكن فيه سفر ولا عمل وربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم فى النهار ولشدة الحر فيتمكنون فى ضوء القمر من اعمال كثيرة وجعل نوره باردا ليقاوم حرارة الشمس فيرد سمومه فيعتدل الامر وبكسر كيفية كل منهما كيفية الاخر ويزيل ضررها وكذلك الحكمة فى خلق النجوم فإن فيها من الهداية فى البر والبحر والاستدلال على الاوقات وزينة السماء وغير ذلك مالم يكن حاصلا بمجرد الاتفاق كما يقوله نفاة الحكمة واقتضت هذه الحكمة ان جعلت نوعين نوعا منها يظهر وقتا ويحتجب اخر ونوعا اخر لا يزال ظاهرا غير محتجب بل جعل ظاهرا بمنزله الاعلام التى يهتدى بها الناس فى الطرقات وهم ينظرون اليها متى ارادوا ويهتدون بها الى حيث شاؤا وجعلت الحكمة فى النوع الاول الاستدلال بظهوره على امور تعاديه متى طلع فى وقت يعنى طل على تلك الامور فقامت المصلحة والحكمة بالنوعين مع مافى خلقها من حكم أخرى ومصالح لا يهتدى إليها العباد فما خلق الله شيئا سدى وقد نظم الله سبحانه الحوادث الارضية بالأزواج والأجرام العلوية أكمل نظام تعجز عقول البشر عن الإحاطة ببعضه وقد استفرغت الامم السابقة قوى أذهانها فى إدراك ذلك فلم تصل منه إلا إلى ما لا نسبة له إلى ماخفى عليها بوجه ما وقد جعل الخلاق العليم سبحانه النجوم فرقتين فرقة منها لا زمة مراكزها من الفلك ولا تسير إلا بسيره وفرقة اخرى مطلقة تنتقل فى البروج وتسير بانفسها غير سير فلكها فلكل بنفسهابأنفسها بأنفسها غير سير فلكها لازمة فلكل منها مسيرات مختلفان احدهما عام مع الفلك نحو المغرب والاخر خاص لنفسه نحو المشرق وقد شبه هذا النوع بنملة تدب على رحا والرحا تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال فللنملة فى تلك الحال حركتان مختلفتان إحدهما حركة بنفسها تتوجه امامها والاخرى بغيرها هى مقهورة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى خلقها فلهذا النوع من النجوم حركتان مختلفتان على الوزن وتقدير لا يعدوه فزعم نفاة الحكمة ان ذلك أمر اتفاق لا لحكمة ولا لغرض محمود**

**فإن قلت فما الغرض المقصود بذلك وأى حكمة فيه قيل : استدل بما عرفت من الحكمة على ماخفى عنك منها ولا تجعل ماخفى عليك دليلا على بطلانها مع أن من بعض الحكم فى ذلك انها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التى تكون من تنقل المتنقل منها ومسيرها فى كل واحد من البروج كما يستدل على أمور كثيرة وحوادث جمة بتنقل الشمس والقمر والسيارات فى منازلها ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه فإنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بتنقلها فى البروج الراتبة كما يقاس سير السائر على الأرض بالمنازل التى يقطعها وبالجملة فلو كانت كلها بحال واحدة لبطل النظام الذى اقتضته الحكمة التى جعلها هكذا فذلك تقدير العزيز العليم وصنع الرب الحكيم وكيف يرتاب ذو بصيرة ان ذلك كله مقدر حكيم أتقن ما صنعه واحكم مادبره ويعرف بما فيه من الحكم والمصالح والمنافع إلى خلقه فشهدت العقول والفطر بأنه ذو الحكمة الباهرة والقدرة القاهرة والعلم التام المحيط وأنه لم يخلق ذلك باطلا ولا من الحكمة عاطلا وكذلك الحكمة فى تعاقب الحر والبرد على التدريج على ابدان الحيوان والنبات فإن قيامهما وكمالهما لما كان بذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يدخل احدهما على الآخر وهلة فلا يتحمله بل بالتدريج قليلا قليلا إلى أن ينتهى منتهاه ويحصل المقصود به من غير ضرر يعم وهذا كله بأسباب هى منشأ الحكم المصالح فلا تبطل السبب بإثبات الحكمة ولا الحكمة بالسبب والحكمة بالمشيئة فتكون من الذين يبخص حظهم من العقل والسمع**

**وكذلك الحكمة فى خلق النار على ماهى عليه كامنة فى حملها فإنها لو كانت ظاهرة كالهواء والماء والتراب لأحرقت العالم ومافيه ولم يكن بد من ظهورها فى الأحيين للحاجة إليها فجعلت ما احتيج إلى بقائها ثم تخبو إذا استعنى عنها فجعلت على خلقه وتقدير وتدبير حصل به الاستمتاع بها والانتفاع مع السلامة من ضررها ثم فى النار خلة أخرى وهى أنها مما خص به الإنسان دون سائر الحيوان فإن الحيوانات لا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما اقتضت الحكمة الباهرة ذلك اغتنت الحيوانات عنها فى لباسها وأقواتها فأعطيت من الشعور والأوبار ما يغنيها عنها وجعلت أغذيتها بالمفردات التى لا تحتاج إلى طبخ وخبز ولما كانت الحاجة إليها شديدة جعل من الالات والاسباب مايتمكن به من إثارتها إذا شاء ومن إبطالها ومن حكمها هذه المصابيح التى يوقدها الناس فيتمكنون بها من كثير حاجاتهم ولولاها لكان نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور وأما منافعها فى إنضاج الأغذية والأدوية والدفء فلا تخفى وقد نبه تعالى على ذلك بقوله ( أ فرأيتم النار التى تورون \* أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلنا ما نذكره ومتاعا للمقوين ) أى تذكر بنار الآخرة فيحترز منها ويستمتع بها المقوون وهم النازلون بالفيفاء وهى الارض الخالية وخص هؤلاء بالذكر لشدة حاجتهم إليها فى خبزهم وطبخهم حيث لا يجدون ما يشترونه فيغنيهم عما يصنعونه بالنار**

**وكذلك الحكمة فى خلق النسيم ومافيه من المصالح والعبر فإنه حياة هذه الابدان وقوامها من خارج ومن داخل وفيه طرد هذه الاصوات فيؤديها الى السامع وهو الحامل لهذه الارابيح يؤديها الى المسام وينقلها من موضع الى موضع وهو الذى يرحى السحاب ويسوقه من مكان الى مكان على ظهره كالروايا على ظهور الإبل وهو الذى يسير السحاب أولا فيكون كسفا متفرقة فيؤلف بينه ثانيا فيصير طبقا واحدا ثم يلقحه ثالثا كما يلقح الفحل الانثى فيحمل الماء كما تحمل الانثى من لقاح الفحل ثم يسوقه رابعا إلى أحوج الاماكن والحيوان إليه ثم يعصره خامسا حتى يخرج ماؤه ثم يذر و ماءه بعد عصره سادسا حتى لايسقط جملة فيهلك مايقع عليه ثم يربى النبات سابعا فيكون له بمنزلة الماء والغذاء ويحفقه بحرارته ثامنا لئلا يعفن ولا يمكن بقاؤه ولهذا اقتضت الحكمة الباهرة ان تكون الرياح مختلفة المهاب والصفات والطبائع فزعم نفاة الحكمة ان هذا كله أمر اتفاقى لا سبب ولا غاية له**

**وهذا لو تتبعناه لجاء عدة اسفار بل لو تتبعنا خلقه الانسان وحده وما فيها من الحكم والغايات لعجزنا نحن اهل الارض عن الاحاطة بتفصيل ذلك فلنرجع الى جواب نفاة الحكمة والتعليل فنقول :**

**قولهم اى حكمة فى خلق إبليس وجنوده ففى ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته فى الله وإغاظته وإغاظة أوليائه والاستعاذة به منه واللجأ إليه أن يعيذهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والاخروية مالم يحصل بدونه وقدمنا أن الموقوف على شىء لا يحصل بدونه ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس ماشاهدوه وسقوطه من المرتبة الملكية الى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى وخضوع آخر وخوف آخر كما هو المشاهد من حال عبد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التى بلغت منه كل مبلغ وهم يشاهدونه فلا ريب ان خوفهم وحذرهم يكون اشد ومنها انه سبحانه جعله عبرة لمن خالف امره وتكبر عن طاعنه وأصر على معصيته كما جعل ذنب ابى البشر عبرة لمن ارتكب نهيه او عصى امره ثم تاب وندم ورجع الى ربه فابتلى ابوى الجن والإنس بالذنب وجعل هذا الاب عبرة لمن اصر وأقام على ذنبه وهذا الاب عبرة لمن تاب ورجع الى ربه فلله كم فى ضمن ذلك من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ومنها انه محك امتحن الله به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم فإنه سبحانه خلق النوع الانسانى من الارض وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث فلا بد أن يظهر فيهم ما كان فى مادتهم كما فى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعا " إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على مثل ذلك منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك فما كان فى المادة الاصلية فهو كائن فى المخلوق منها فاقتضت الحكمة الإهلية إخراجه وظهوره فلا بد إذا من سبب يظهر ذلك وكان إبليس محكا يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكا لذلك التمييز قال تعالى ( ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ) فأرسل رسله إلى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث فا نضاف الطيب إلى الطيب والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم فى دار الامتحان فإذا صاروا على حدة حكمة بالغة وقدرة قاهرة ومنها أن يظهر كمال قدرته فى خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسماء والارض والضياء والظلام والجنة والنار والماء والنار والحر والبرد والطيب والخبيث ومنها ان خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنا كما تقدم بيانه قريبا ومنها انه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله ابليس وجنوده وامتحانهم به من انواع شكره مالم يكن ليحصل لهم بدونه فكم بين شكر آدم وهو فى الجنة قبل ان يخرج منها وبين شكره بعد ان ابتلى بعده ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله ومنها ان المحبة والانابة والتوكل والصبر والرضاء ونحوها احب العبودية الى الله سبحانه وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله وتقديم محبته على مل ما سواه فالجهاد دروة سنام العبودية وأحبها إلى الرب سبحانه فكان فى خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التى لا يحصى حكمتها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله ومنها أن فى خلق من يصاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ماوجوده احب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كما تقدم من ظهور آية الطوفان والعصا واليد وغلق البحر وإلقاء الخليل فى النار وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته فلم يكن بد من وجود الاسباب التى يترتب عليها ذلك كما تقدم ومنها أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد وفيها الإشراق والإضاءة والنور فأخرج منها سبحانه هذا هذا كما أن المادة الترابية الارضية فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والاحمر والاسود والابيض فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة وآية دالة على أنه ( ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ) ومنها ان من اسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم وهذه الاسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها إحكامها كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها ولابد من ظهور متعلقات هذه وهذه ومنها انه سبحانه الملك التام الملك ومن تمام ملكه عموم نصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال فلابد من وجود من يتعلق به احد النوعين كما اوجد من يتعلق به النوع الآخر ومنها ان من أسمائه الحكيم والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شىء موضعه الذى لا يليق به سواه فاقتضت خلق المتضادات وتخصيص كل واحد منها ما لايليق به غيره من الاحكام والصفات والخصائص وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة ومنها أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه فلله الحمد النام الكامل على هذا وهذا وهو يحمد نفسه على ذلك كله ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه ويحمده عليه اهل الموقف جميعهم وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله فى خلقه وإيجاده الحكمة التامة كما له عليه الحمد التام فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته ومنها انه سبحانه يحب ان يظهر لعباده حلمه وصبره وأنانه وسمه رحمته وجوده فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ويرزقه ويعاقبه ويمكن له من اسباب ما يلت ذبه من اصناف النعم ويجيب دعاءه ويكشف عنه السوء ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته فلله كم فى ذلك من حكمة وحمد ويتحبب الى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته كما فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال " لا أحد اصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعاقبهم " وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه " شتمنى ابن آدم وما ينبغى ذلك وكذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك أما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم يلد ولم أولد ولم يكن لى كفؤا أحد وأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى " وليس اول الخلق بأهون عليه من إعادته وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب ويعاقبه ويدفع عنه ويدعوه إلى جنته ويقبل توبته إذا تاب غليه ويبدله بسيئاته حسنات ويلطف به فى جميع احواله ويؤله لإرسال رسله ويأمرهم بأن يلينوا له القول ويرفقوا به قال الفضيل بن عياض " نامن ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله " من أعظم منى جودا الخلائق لى عاصون وأنا أكلاهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا أجود بالفضل على العاصى وأتفضل على المسيء من ذا الذى دعانى فلم البه ومن ذا الذى سالنى فلم أعطه أنا الجواد ومنى الجود أنا الكريم ومنى الكرم ومن كرمى أنى أغطى العبد ما سالنى وأعطيه مالم يسألنى ومن كرمى أنى أعطى التائب كأنه لم يعصنى فأين عنى يهرب الخلق وأين عن بابى يتنحى العاصون وفى اثر إلهى " إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم \* أخلق ويعبد غيرى \* وأرزق ويشكر سواى " وفى أثر حسن " ابن آدم ما أنصفتنى خيرى إليك نازل وشرك إلى صاعد كم اتحبب إليك بالنعم وأنا غنى عنك وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ولا يزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح " وفى الحديث الصحيح " لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم " فهو سبحانه لكمال محبته لاسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقا يظهر فيهم أحكامها وآثارها فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله بل يكون يحب أمانة وإمهاله ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان فلولا خلق من يجرى على ايديهم أنواع المعاصى والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ذو الحكمة البالغة والنعم السابقة الذى وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته وله فى كل شىء حكمة باهرة كما أن له قدرة قاهرة وهدايات إنما ذكرنا منها قطرة من بحر وإلا فعقول البشر أعجز واضعف واقصر من أن تحيط بكمال حكمته فى شىء من خلقه فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى يتصل فى حبه ما حصل به من مكروه الذى يبغضه ويسخطه إذا كان طريقا الى حصول ذلك المحبوب ووجود الملزوم بدون لازمه محال فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصى ماحصل فمن حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة هى أحب إلى الله وأرضى له من جهاد فى سبيله ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ويحتمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته وأحب شىء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته**

**من أجلك قد جعلت خدى أرضا \*\*\* للشامت والحسود حتى ترضا**

**وفى أثر إالهى " بقيتى ما يتحمل المتحملون من أجلى " فلله ما احب إليه احتمال محبيه إذا أعدائه لهم فيه وفى مرضاته وا أنفع ذلك الاذى لهم وما أحمد هم لعاقبته وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرة عيونهم به ولكن حرام على منكرى محبة الرب تعالى ان يشموا لذلك رائحة او يدخلوا من هذا الباب او يذوقوا من هذا الشراب**

**فقل للعيون العمى للشمس أعين \*\*\* سواك تراها فى مغيب ومطلع**

**وسامح نفوسا لم تؤهل لحبهم \*\*\* فما يجسن التخصيص فى كل موضع**

**فإن أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبياؤه ورسله وأولياؤه وذلك الرضاء اعظم من ذلك الغضب وإن أسخطه ما يجرى على يديه من المعاصى والمخالفات فإنه سبحانه أشد فرحا بتوبة عبده من الفاقد لراحته التى عليها طعامه وشرابه إذا وجدها فى المفاوز المهلكات وإن أغضبه ماجرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو فقد سره وأرضاه ماجرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه وهذا الرضاء اعظم عنده وأبر لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضى المحبوب وان اسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله من حرمه وبلدته ذلك الخروج فقد أرضاه أعظم الرضاء دخوله إليها ذلك الدخول وإن أسخطه قتلهم أولياءه وأحياءه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التى لا أطيب منها ولا أنعم ولا الذ فى قربه وجواره وإن أسخطه معاصى عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله واوليائه سعة مغفرته وعفوه وبره وكرمه وجوده والثناء عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصى وفوات هذه المحبوبات واعلم أن الحمد هو الاصل الجامع لذلك كله فهو عقد نظام الخلق والامر والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه فما خلق شيئا ولا حكم بشىء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده غلى حيث وصل خلقه وامره حمدا حقيقا يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة فى كل ما خلقه وامر به فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده كما تقدم بيانه فكما انه لا يكون إلا حميدا فلا يكون إلا حكيما فحمده شىء من صفاته واسمائه عن مقتضياتها وآثارها فإن ذلك يستلزم النقض الذى يناقض كماله وكبرياؤه وعظمته**

**كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطى ويمنح فمنها أن يعيذ وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندى فى ممدوجه :**

**يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به فيما أحاذره**

**لا يجبر الناس عظما أنت كاسرة ولا يهيضون عظما أنت جابره**

**ولو قال ذلك فى ربه وفاطره لكان اسعد به مخلوق مثله والمقصود ان ملك الملوك يحب ان يلوذ به مماليكه وان يعوذوا به كما امر رسوله ان يستعيد به من الشيطان الرجيم فى غير موضع من كتابه وبذلك يظهر تمام نعمته على عدوه إذا أعاذه واجاره من عدوه فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين والله تعالى يحب ان يكمل نعمته على عباده على المؤمنين ويريهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم بهم فيالها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم وعدل أظهره فى أعدائه وخصمائه**

 **وما منهما إلا له فيه حكمة يقصر عن إدراكها كل باحث**

**من كتاب شفاء العليل**

**ابن القيم الجوزية**